الدرس (٠٨٥) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فنواصل قراءتنا في هذا الكتاب المبارك كتاب رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، لأبي زكريا النووي رحمه الله تعالى.

يقول المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى:

٤٢- باب فضل بر أصدقاء الأب والأم والأقارب والزوجة وسائر من يندب إكرامه

عقد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هذه التَّرجمة بعد أن عقد بابًا في بِرِّ الوالدين وصلة الأرحام، ثمَّ بابًا في التَّحذير من العقوق والقطيعة، ثمَّ عقد هذه التَّرجمة في برِّ أصدقاء الأب والأُمِّ والأقارب والزَّوجة، وسائر مَن يندب إكرامه.

وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يُنَبِّه بهذا إلى أنَّ من برِّ الوالد أن يُبَرَّ أصدقاؤه، ومن برِّ الوالدة أيضًا أن يُبَرَّ صديقاتها، وكذلك فيما يتعَلَّق بالخال أو العمِّ أو الزَّوجة، فهذه التَّرجمة عقدها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ لبيان هذه الخصلة العظيمة الَّتِي قد يغفل كثير من النَّاس عن الدِّراية بأنَّها من أبواب البِرِّ، الَّتِي ينبغي أن يكون عليها المسلم.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٤١- (عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَبَرَّ البِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وُدَّ أَبِيهِ»(١)).

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥٢).

ومعنى: «أَبَرَّ البِرِّ» أي: أكمله وأعظمه، و(ودّ الأب)، أي: مَن يُحِبُّه الأب، ومَن بينه وبينه صداقة ومودَّة ومحبَّة.

فبيَّن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الحديث أنَّ صلة أصدقاء الأب ومُحِبِّيه ورفقائه يُعَدُّ من بِرِّ الأب.

وينبغي أن يُعْلَم أنَّ هذا الباب من أبواب البِرِّ بالأب ببِرِّ أصدقائه متاحٌ للعبد ومهيأ في حياة والده و بعد وفاته؛ لأنَّ صلة مَن يُحِبُّهم الأب، وبينه وبينهم مودَّة، ليس أمرًا مقتصرًا على حياة الأب، بل حتَّى بعد وفاته كما يُوَضِّحه الحديث الآتي بعده في عظم تطبيق الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لذلك.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٤٢- (وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَار عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ لَقِيَهُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، فَسَلَّمَ عَلَيهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ، وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ، قَالَ ابْنُ دِينَار: فَقُلْنَا لَهُ: أَصْلَحَكَ اللهُ، إِنَّهُمُ الْأَعْرَابُ وَهُمْ يَرْضَوْنَ بِاليَسِيرِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: إِنَّ أَبَا هَذَا كَانَ وُدًّا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ**»[٢].

وفي رواية عن ابن دينار، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّهُ كَانَ إِذَا خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ كَانَ لَهُ حِمَارٌ يَتَرَوَّحُ عَلَيهِ إِذَا مَلَّ رُكُوبَ الرَّاحِلةِ، وَعِمَامَةٌ يَشُدُّ بِهَا رَأْسَهُ، فَبَيْنَا هُوَ يَومًا عَلَى ذَلِكَ الحِمَارِ، إِذْ مَرَّ بِهِ أعْرابيٌّ، فَقَالَ: أَلَسْتَ فُلَانَ بْنَ فُلَان؟ قَالَ: بَلَى. فَأَعْطَاهُ الحِمَارَ، فَقَالَ: ارْكَبْ هَذَا، و العِمَامَةَ وَقَالَ: اشْدُدْ بِهَا رَأْسَكَ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: غَفَرَ اللهُ لَكَ أَعْطَيْتَ هَذَا الْأَعْرَابِيَّ حِمَارًا كُنْتَ تَرَوَّحُ عَلَيهِ، وَعِمَامَةً كُنْتَ تَشُدُّ بِهَا رَأْسَكَ؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ: «**إِنَّ مِنْ أَبَرِّ البِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيْهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ**» وَإِنَّ أَبَاهُ كَانَ صَدِيقًا لعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٢).

رَوَى هذِهِ الرِّواياتِ كُلَّهَا مسلم).

هذا جانب عظيم من بر الوالدين بعد وفاتهما، إذ لا ينقطع البر بموتهما بل هو باقي حتى بعد موتهما، ومن ذلك أن يصل وُدَّ أبيه أي من كانت بينهم وبين والده محبة ومودة.

فقوله: «إِنَّ مِنْ أَبَرِّ البِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيْهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ» أي بعد موت الأب، فهذا من أبواب البرِّ المتاحة للأبناء بعد وفاة الآباء أن يبروا من كان لهم مودة ومكانة في نفوس آبائهم.

وهذا ابن عمر رضي الله عنهما يعمل بهذه السنة طلبا لثوابها وبرا بوالده عمر رضي الله عنه، فلقي ابن عمر رضي الله عنهما هذا الأعرابي فسأله « أَلَسْتَ فُلَانَ بْنَ فُلَان؟ »قال: بلى فأعطاه حماره وهو بحاجة إلى أن يتروح عليه إذا مل ركوب الراحلة، وأعطاه عمامة كان يشد بها رأسه ، فقيل لابن عمر غفر الله لك إنه من الأعراب وإنهم يرضون باليسير، فذكر رضي الله عنه الحديث «إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ» وقال إن أباه كان صديقا لعمر رضي الله عنه ، فأكرمه برا بأبيه ،وإذا كان ابن عمر قد أكرم هذا الأعرابي من أجل أن أباه كان صديقا لعمر فكيف لو رأى رضي الله عنه صديق عمر نفسَه ، وفي الحديث أن باب البر واسع فلا يختص بالوالد والوالدة بل يشمل حتى أصدقائِهما، فصلة أقارب الميت وأصدقائه بعد موته هو من تمام بره.

وهذا فيه لفتة للأبناء: أن البرَّ بأصدقاء الوالد فرع عن معرفتهم، وهذا يتطلب من الابن أن يكون قريبا من والده ومعه عند أضيافه ورفقائه، وأن يُحبِّب لنفسه مجلس والده حتى يعرف رفقاءه ومن لهم مكانة عند أبيه ليحقق هذا البر، والآن بعض الأبناء بسبب الانشغال باللهو والانهماك في مخالطة الأصدقاء لا يعرف شيئا عن والده ورفقائه وأهل وده فكيف يكون منه برٌّ لهم وهو لا يعرفهم أصلا؟ ولننظر إلى عناية ابن عمر رضي الله عنه بهذا الأمر كيف عرف ابن صديق أبيه فكيف إذن بمعرفته بأصدقاء أبيه رضي الله عنه وأرضاه وعن الصحابة أجمعين.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٤٣- (وَعَنْ أَبِي أُسَيْدٍ -بِضَمِّ الهَمْزَةِ وَفَتْحِ السِّينِ- مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ فَقَالَ: «**نَعَمْ، الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُد[٣]).

هذا الحديث جُمِع فيه أبوابٌ من البِرِّ تكون للأبوين بعد الممات، ممَّا يفيد أنَّ بِرَّ الأبوين لا ينقطع بموتهما، بل ثَمَّة أبوابٌ من البِرِّ لهما بعد الممات، **وهذا الحديث جُمِع فيه قدرٌ من هذه الأعمال الَّتِي هي من بِرِّ الأبوين بعد الممات:**

العمل الأوَّل: الصَّلاة عليهما، أي: بأن يكثر من الدُّعاء للوالدين بالرَّحمة والمغفرة، ودخول الجنَّة، والنَّجاة من النَّار ونحو ذلك.

الثاني: الاستغفار لهما: أي الدعاء لهما بالمغفرة وهو داخل في قوله: «الصَّلَاة عليهما»؛ فالصَّلاة هي الدُّعاء، وتشمل الدُّعاء لهما بغفران الذُّنوب، لكن خصَّه بالذِّكر لأهمِّيَّة هذا المطلب العظيم.

الثالث: «**إِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِما**» أي: إن كان للأبوين من وصيَّة أو نحو ذلك، فإنَّه يعمل جاهدًا على إنفاذ وصيَّة أبويه. وجاء في بعض ألفاظ الحديث: ((وإيفاء عهدهما)).

الرابع: «**صِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا**» أي: ليس لك صلةٌ بها إلَّا من طريقهما، مثل الأعمام والأخوال وأبناء العم وأبناء الخال، ونحو ذلك، فهؤلاء كلهم من ذوي الأرحام ومن الأقارب فصلتهم من برِّ الوالد. فلهم حقٌّ بالصِّلة والإكرام.

الخامس: «**إكرامُ صَدِيقهمَا**» وهذا نظير ما تقدَّم في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «**إِنَّ أَبَرَّ البرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وُدَّ أبيهِ**».

---

(٣) رواه أبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤)، وضعَّفه الألبانِيُّ.

وهذا الحديث قد تكَلَّم بعض أهل العلم فيه من حيث الإسناد ، لكنَّ المعانيَ المُقَرَّرة فيه كلُّها حقٌّ، ولها شواهد عامة ودلائل فيما يتعلق بالدعاء لهما والاستغفار، وكذلك فيما يتعلق بإنفاذ العهد ما لم يكن محرمـًا، وكذلك ما يتعلق بصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وكذلك من ناحية إكرام ودهما.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٤٤- (وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَمَا رَأَيْتُهَا قَطُّ، وَلَكِنْ كَانَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنْ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا خَدِيجَةَ! فَيَقُولُ: «**إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٤).

وفي روايةٍ: «وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاءَ، فَيُهْدِي فِي خَلَائِلِهَا مِنْهَا مَا يَسَعُهُنَّ».

وفي رواية: «كَانَ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ، يَقُولُ: «**أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ**».

وفي رواية: «قَالَتِ: اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارتَاحَ لِذَلِكَ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ**».

قولُهَا: «فَارتَاحَ»: هُوَ بالحاء، وفي «الجمعِ بَيْنَ الصَّحيحين» للحُميدِيِّ: «فارتاع» بالعينِ ومعناه: اهتمَّ بهِ).

هذا الحديث يتعَلَّق بأصدقاء الزَّوجة، وكيف أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يصل صدائق وخليلات أمِّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها ويتعاهد صواحباتها.

قالت عائشة رضي الله عنها: فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنْ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا خَدِيجَةَ! وهذا من أسباب الغيرة لما فيه من الإشعار باستمرار حبه لها حتى كان يتعاهد صديقاتها، فكان يقول لها: «إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ» أي يعدد مآثرها ومناقبها رضي الله عنها.

---

(٤) رواه البخاريُّ (٣٨١٨)، (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٥)، (٢٤٣٧).

الحاصل أنه صلى الله عليه وسلم كان يرعى حق الزوجة حتى بعد موتها، وهذا من حسن العهد، روى الحاكم في المستدرك عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ : جَاءَتْ عَجُوزٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عِنْدِي ، فَقَالَ : لَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ أَنْتِ ؟ قَالَتْ : أَنَا جَثَّامَةُ الْمُزَنِيَّةُ ، فَقَالَ : بَلْ أَنْتِ حَسَّانَةُ الْمُزَنِيَّةُ ، كَيْفَ أَنْتُمْ ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ ؟ كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدَنَا ؟ قَالَتْ : بِخَيْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ ، فَلَمَّا خَرَجَتْ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، تُقْبِلُ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ هَذَا الإِقْبَالَ ؟ فَقَالَ: إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ .

فهذه امرأة كانت تأتي زمن خديجة لزيارة خديجة رضي الله عنها فما نَسِيَهَا – صلى الله عليه وسلم – وأخذ يرحب وينوع في ألفاظ السؤال عنا حالها ((كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟)) ، فلما ذهبت قالت عائشة رضي الله عنها ((تُقْبِلُ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ هَذَا الإِقْبَالَ ؟))، فعرفها بمكانتها عنده بأنها كانت صديقة لزوجه خديجة رضي الله عنها ((فَقَالَ : إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ)). ففيه حسن العهد وحفظ الود ورعاية حرمة الصاحب ومكانة العشير في حياته وبعد موته.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٤٥- (وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ البَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سَفَرٍ، فَكَانَ يَخْدُمُنِي، فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَفْعَلْ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْأَنْصَارَ تَصْنَعُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئًا آلَيْتُ أَنْ لَا أَصْحَبَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا خَدَمْتُهُ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٥)).

هذا فيه: كمال خلق أصحاب النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهذا جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخدم أنس بن مالك لِمَا رآه من صنيع الأنصار برسول الله ﷺ في تسابقهم إلى خدمته، والعناية بأموره وحاجته عليه صلوات الله وسلامه، فكان مع أنس في سفر فكان يخدم أنسًا، فقال له أنس: لا تفعل ذلك، فبيَّن له السَّبب، فقال: ((إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْأَنْصَارَ تَصْنَعُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ

(٥) رواه البخاريُّ (٢٨٨٨)، ومسلم (٢٥١٣).

شَيْئًا آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ لَا أصاحب أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا خَدَمْتُهُ)) ومعنى (آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي) أي: أقسمت وحلفت، أنَّني إن صحبت أحدًا منهم -أي: الأنصار- إلَّا خدمته. لما رأى من حسن صنيعهم برسول الله ﷺ من العناية والإكرام والخدمة والإجلال والاحترام.

وما تقدم كله من حسن العهد والمراد بالعهد: عهد المعرفة المتقدمة، وما ينبغي على الإنسان أن يتعاهده من رحمٍ تُوصل أو حقوقٍ تُؤدى أو جميلٍ يُرعى ويُحفظ أو نحو ذلك، رعايةً ليد سالفة ، أو حرمةٍ لازمة، وهذا من الوفاء، وقد قيل في الحكم : أكرم الشيم أرعاها للذمم، وقد تقدم في الحديث أن ((حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ)).

والناس في هذا الباب على قسمين:

قسم: لا يبالي بالعهد ولا يكترث به فيُقَدَّم له الجميل ويُصْنّع له المعروف فيَنْسَاه ولا كأنه حصل وربما مَرَّ على من أحسن إليه وقدم إليه جميلاً فصَدَّ عنه وربما لم يُلْقِ عليه السلام فهذا مضيعٌ للعهد.

والقسم الثاني: هم أهلُ حسن العهد: الذين يَرْعَونَ العهد ويحفظونه ولا ينسونه ويعرفون لأهل الجميل جميلهم ولأهل الفضل فضلهم ولأهل الإحسان إحسانهم.

وهذا الحفظ للعهد يعد من كمال الشَّريعة في دعوتِها إلى حفظ المعروف ومُراعاة الجميل وعدم نسيان الكرم والإحسان. وحري بنا أن نُعْنَى بهذا الخلق الفاضل الكريم، فإن تطبيقنا له جمال في حياتنا وكمال وسعادة .

ونسأل الله جل وعلا أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا؛ إنه سميع الدعاء. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.